مُناقشَات

فرعون من جديد؟!

بقلم : غالي شكري

تفضل السيد علي بدور ـ في غمرة صياحنا من اجل حرية الفكر ـ وراح ، بحسن نية مفرطة ، يستعدي علي سلطات الدولة ، لاني « في رأيه » أعادي الحركة القومية ، وأدعو الى الشعوبية ، وأقف الى جانب الاستعمار !! هكذا مرة واحدة .. رغم ان شقا واحدا في هذه الدعوى يكفي كثيرا ، لصنع أعظم مشنقة !

ويبدو ان كلمة « الفرعونية » اصبحت كليشيها جميلا في نظر الذين يحلو لهم ان يتقيأوا على وجوه الاخرين .. فمنذ ثلاث شهور تماما كتبت تعليقا على خبر قرأته بأحدى الصحف الانجليزية ، وقلت بالحرف الواحد (١) « تساءلت مجلة « نيوستيتسمان » البريطانية ، من اسابيع سؤلا هاما . قال المحرر الفني : لماذا يتباكى علماء مصر على سرقة عصا توت غنج أمون ، رغم ان الجنسية الفرعونية ، سرقت منهم للابد .. منذ قالوا بأنهم جزء من الامة العربية ؟

وليست هذه الكلمات مجرد نكتة سخيفة ، كما علق عليها احد الطلاب العرب في لندن . وانما هي تنطوي على لون من التفكير يستحق ان يناقش . فلا شك ان الكثيرين لم يتعرفوا بعد على حقيقة الدعوات القومية في خط سيرها التطوري الى امام . والمحرر الانجليزي لايقصد بالفرعونية الا الدعوة المصرية التي رافقت تاريخنا فترة من الزمن .

ويبدو اننا نحن اولا ـ قبل الاجانب ـ في حاجة لان نقرأ هذا التاريخ بوعي ، فقد رافق التطور القومي لبلادنا عديد من الاحداث الاجتماعية والسياسية التي التبس مدلولها الفكري على الكثيرين ، ومن ثم تورطوا في مفاهيم خاطئة ، لاتقل خطورة عن المعنى الغريب الذي جاءت به الصحيفة الانجليزية .

واذا اعدنا الى الوراء قرابة نصف قرن او يزيد ، لاكتشفنا ان النقاب الذي أشعل الوجدان الوطني في مصر هو كابوس الدولة العثمانية ، فقد أحس المصريون بكيانهم القومي يذوب في هيمنة هذه الدولة وسلطانها . وأحسوا أنه لا قيمة لوجودهم الانساني في ظل حماية أجنبية . وهكذا تولد الاحساس القومي رغبة في التخلص من النير العثماني ، وبأن تكون « مصر للمصريين » فقط !

فالتفسير العلمي اذن للدعوة الاستقلالية الاولى التي نادى بها احمد لطفي السيد ، هو ان الاساس الاقتصادي والاجتماعي في مصر لم يكن وطنيا تماما ، اذا نظرنا للوطنية في أضيق حدودها ، ومن ثم لم يكن تعبيره « مصر للمصريين » شعارا سياسيا ، بقدر ما هو تعبير عن الحاجة المصرية الملحة ، للتحرر من السيادة الاقتصادية العثمانية وتجسدت ثورة المصريين على الاخطبوط التركي في صيغة الفصل الحاسم بين أمجادنا وأمجادهم . وتمزقت حينذاك كافة الروابط الروحية التي كانت تسحق الاستقلال الاقتصادي المصري تحت رطأة التقاليد التاريخية. وفي ثورة الانفعال الصادق بالازمة ، تلقف المفكرون الوطنيون خيوطها ، واخذوا يبحثون العناصر التي من شأنها ان تضرم لهبها وتزيد وقودها اشتعالا .

(١) يراجع نص المقال بمجلة العالم العربي ـ التي تصدر في القاهرة عدد ديسمبر ١٩٥٩

ولما كانت هذه الازمات ـ بطبيعتها ـ رومانسية ، بمعنى ان ظروفها ليست واحدة من الجانبين ، وليست هناك امكانيات جدية تحقق الصراع بين القوى الطاغية والجبهات الوطنية ، على مستوى عال ، فان العلاج المتوقع لهذه الازمات هو في صميمه علاج رومانسي ، وهكذا ـ رأينا ادباءنا ومفكرينا ، يعودون بنا الى الامجاد القديمة ، يستحثون بها نخوتنا الوطنية ، ويستثيرون في أعماقنا شهوة الثأر لاجدادنا العظماء من سطوة الطغاة المستبدين .

ومن هنا .. من هذه النظرة الرومانسية للمأساة ... تبلورت الوطنية المصرية عند مفكرينا في بعث التاريخ الفرعوني.. لا بقصد الدراسة التاريخية العلمية ، وانما بهدف استعادة المجد التليد الى مخيلة الجيل الحديث ، ولمسنا ـ على الرغم ـ انشغال الادباء واهتمامهم بهذا الماضي .. حتى جرفتنا هذه العناية المفرطة بالاكفان ، الى ان نهمل الاسباب الجذرية وهي ان مصر تئن تحت سياط الدولة العثمانية . وكان « الماضي » اذن، بمثابة المخدر الذي أثمل عيوننا عن جوهر المأساة .

وتجددت القصة مع الاستعمار الانجليزي بشكل اكثر وضوحا ... فقد هدته تجاربه الطويلة وخبراته العريضة في مجالات النهب والاستغلال الى ان الوحدة الداخلية بين الشعوب هي السد المنيع ضد مصالح بقائه ، ومن ثم كان يوجه جهوده دائما في البحث عن ثغرة تفرق صفوف الشعب ، وتنفذ منها سهامه العدوانية ، وهكذا وجد في شعاره « فرق تسد » فلسفة كاملة ، يمكن تطبيقها على المصريين الذين شاء تاريخهم ان يوجد بينهم القبطي والمسلم على حد سواء . فافتعل التفرقة العنصرية على اوسع نطاق ، ولكن هذه الفتنة السوداء ، سرعان ما اخمدت نيرانها مع الانطلاقة الوطنية الواعية التي انبعثت من ضمير شعبنا ، هذا الشعب الذي قال ان « مصر للمصريين » وليست للانجليز.

ولكن الدعوة المصرية في تلك المرحلة ، كانت اكثر وعيا من المرحلة السابقة . ولهذا لم تكن عودتنا هذه المرة الى الفراعنة عودة رومانسية . وانما كانت رد فعل طبيعي للحركة الاستعمارية . فنحن جميعا مصريون أرضنا واحدة وعدونا واحد ، هو الاحتلال الانجليزي .

وما يؤكد سلامة الوعي الوطني في هذه المرحلة ، هو الخطوات البنائية التي خطاها الوطنيون في مصر ، ومنهم من كون جبهات اقتصادية واجتماعية معادية للاستغلال الاجنبي . وجمعية « المصري المصري » اصدق مثال لذلك . فقد تكونت هذه الجماعة للمناداة بالاكتفاء الذاتي ، اي ان نستغني بالصناعات المحلية عن البضائع المستوردة . ويمكننا ان نلمس اوجه الشبه بين هذه الحركة الاكتفائية ، والحركة الغاندية في الهند . اذ كان السبب واحدا هو اظافر الاستعمار المفرقة التي صنعت من الهند اشياعا ومذاهب . وظهر غاندي كاستجابة حاسمة لهتاف الضمير الهندي . وكذا ايضا ماحدث في مصر حين اصطدم الانجليز بالوطنية المصرية ، فقد بات ظنهم مؤكدا ان الاقباط والمسلمين وحدة واحدة ، لايمكن ان تنفصم .

وقد عبر ادباؤنا اصدق تعبير عن هذه الفترة العصيبة ، بان انكبوا ـ ثانية ـ على التاريخ الفرعوني ، لا ليستخرجوا الاكفان ، وانما ليدرسوا

واقعنا الاجتماعي عبر التاريخ . وقرأنا في ميدان البحوث دراسات جادة عن الحضارة المصرية القديمة ، وفي ميدان الادب ، قرانا القصص الانساني الذي يتخذ من اجدادنا خاصة فنية يصور بها الام حاضرنا ومشكلات عصرنا .

ولكن ، بعد ان تخلصت مصر من النير العثماني ، والاستعمار الانجليزي كان لا بد للدعوة القومية ان تتطور وتتسع لواقع اشمل ، واكثر عمقا . فبعد ان تبلورت الوحدة الداخلية في الدعوة المصرية ، كان لا بد ـ بعد ان حطمنا القيود جميعها ـ ان نتحسس آثار كفاحنا على تاريخ اشقائنا العرب ، واذا بابناء المنطقة العربية جميعا ، قد اجتازوا نفس المراحل الدامية التي عانينا قسوتها ، وقد صهرت معهدنهم التجربة التاريخية ، فاصبحنا كلنا بناة وحدة جديدة ، لا تقف في طريقها عقبات من الخارج او الداخل . واصبحت المعركة واضحة في غير حاجة الى سؤال المحرر الفني لمجلة (بنوستيتسمان) . فاننا لم نفقد مصر ، وانما اخصبنا وجودها ، وازدادت وجداناتنا ثراء . لاننا آمنا بمصر في خط سيرها الطويل نحو الوحدة العربية ، التي انبعثت من صميم حاجتنا التاريخية . واذن فليطمئن المحرر الانجليزي ، والواقفون معه، من اننا لم نفقد جنسيتنا ، وانما اضفنا اليها غنى جديدا »

هل يمكن لقائل هذه الكلمات ، ان يكون تلميذا لدنلوب ؟! الله يسامحك يا سيدي !

وهناك عدة جرائم صغيرة ، اتهمني بها صاحب الرد .. ليست في مستوى المشنقة .

■ اتهمني مثلا بالسذاجة . وليس عيبا ان اكون ساذجا ، ما دامت السذاجة لم تصبح بعد من الامراض المستعصية .اتهمني بالسذاجة ، لاني قررت حقيقة تاريخية لا يجهلها احد ، وهي ان اللغة العربية دخلت مصر مع الاسلام !! وان المصريين كانت لهم لغة ـ او لغات ـ اخرى ،قبل الغزو العربي . ولست اجد في ذلك ، اية غرابة .. أو سذاجة . بينما هرب السيد بدور من مناقشة حديثي عن اللغة ـبوجه عام ـ حيث قدمت نظرة جديدة للغة ، كان بوسعه ان يناقشها ، ولكنه اقحم اللغة العربية ، للارهاب فقط .

■ اتهمني ايضا بالجهل ، لاني رايت في فصل (صبي في المسجد) قصة ، بينما هي ـ في رايه ـ بحث ـ ككل البحوث ، ((له اصول واعراف)) . وما زلت حتى اللحظة ، اقول بان (صبي في المسجد) قصة قصيرة اكتملت لها كافة السمات الفنية للقصة ، ولاتمت الى البحوث بصلة ما . ويقول السيد صاحب الرد انني اردت ان افسر موقف المؤلف ، تفسيرا يبعد عن التفسير الذي قصده المؤلف . وانني لفي دهشة من انه اقام من نفسه ـ هكذا بلا مناسبة ـ وصيا على المؤلف .. بينما بديهيات النقد تقول ان الناقد يرى العمل الادبي من خلال نظرته الموضوعية للحياة ، لا من خلال ما اضمره المؤلف في صدره. ومن هنا تختلف آراء نقاد العالم حول عمل فني واحد . وقد يقف النقاد جميعا في صف ، والمؤلف في صف اخر !!

■ اتهمني بتكلف العناوين المثيرة لمقالاتي .. بينما لا اجد مقالا لي ، لم استخلص العنوان من صميمه. فـ (العمامة تاج العرب) جملة صادفتني في الرواية واعجبتني ، وليس من ضير ان اضعها عنوانا للمقال . و (دفاع عن لحن) قصدت به ما يريده المؤلف مباشرة من نشر كتابه . بل الى أن أزف صاحب الرد خبرا هاما ، وهو ان كتاب الدكتور نظمي القادم بعنوان (دفاع عن لحن) !

صدر حديثا

دراسات إسلامية

بقلم جماعة من المستشرقين

ترجمة الدكاترة انيس فريحه وكمال اليازجي ونقولا زياده
والاستاذين محمد توفيق حسين ومحمود الحوت

٥٠٠ صفحة من القطع الكبير ـ الثمن ١٠ ل.ل

منشورات مكتبة الاندلس ـ بيروت

وما أعرفه جيدا يا سيدا ، هو أن قارىء الاداب ، لا تنطلي عليه الاثارة ولا تخدعه ، ومن المستحيل ،ان اكون على وعي بهذه الحقيقة ، واعمل ضدها . انني ـ مع شكري العميق لدرسك العظيم ـ ارجو ان تتكرم بمراجعة عناوين مقالاتي ... مرة اخرى .

غير ان لي بدوري ، عدة ملاحظات ـ لاتهم ـ اهمس بها في أذن السيد صاحب الرد :

■ انت لم تكن امينا يا سيدي ، في عرضك لافكاري وآرائي « فقد صفتها في قالب مفكك ركيك ، ولم تستشهد بنص واحد كامل من مقالي ، ورحت تكيل التهم والنكات ، دون ان تعالج نقطة واحدة ، بطريقة موضوعية .

■ يبدو ان هناك سوء تفاهم شخصي ، بينك وبين اخناتون . فلقد حرمته حقا يعترف به العالم اجمع والتاريخ . وليس هذا في ذاته شيئا . فما اخناتون الا رمز لفكرة التوحيد .. لا تستحق منك ابدا كل هذه العصبية في المناقشة . ما ذنب ابو الهول ان تسخر منه هو وخوفو وفرع ومنقرع ؟!

ليس هناك مذهب او فلسفة في العالم تدعى « الفرعونية » ، حتى يمكن اعتناقها .. انها مجرد لفظة يا سيدي لا تفارق الافواه التي يحلو لها ان تتقيأ على وجوه الاخرين . هناك قضايا اعمق ، ومشكلات اكثر عمقا .. جديرة حقا بالمناقشة .. ولكنك هربت منها يا سيدي .. هربت !

■ احقا يا سيدي ، انك لم تكن انت صاحب الرد ؟! لقد وصلتني رسالة منذ اكثر من شهر من الاديب السوري الاستاذ عدنان الداعوق.. جاء فيها بالحرف « ان مقالك هذا اثار من حولنا ضجة .. وقد كلف الاستاذ علي بدور بالرد عليك ، وارسل رده للاداب »

انني لا افهم يا سيدي ـ ولا تواخذني ـ كلمة « كلف » هذه !!كلفت يا سيدي بالرد علي ؟! كلفت ؟ وممن ؟

انني ، ما كنت ساكتب كلمتي هذه ، لولا ان القضية فكرية ، وعامة ، وتستحق الايضاح .. ولكنني في النهاية ـ وهذا هو المهم ـ لم اكلف بهذا الرد !!

ويسعدنا يا سيدي ، ان اخبرك ، بانني اغلق باب المناقشة في هذا الموضوع من جانبي . لا نني لست مسعدا ـ بمنتهى الجبن ـ لان اقول اكثر مما قلت !!!

غالي شكري

الى الدكتور عزة النص

بقلم علي بدور

في تعليقك ونقدك لما جاء في العدد الثوري من الاداب ، احببت ان تمر بمقال : المثقفون والمجتمع العربي وقد اخذت على كاتبه حكمه على الثقافات الاجنبية حكما خاطئا واحببت ان تدله على قيمة هذه الثقافات بالموازنة بين البلاد العربية التي نهلت من معين هذه الثقافات ، والبلاد الاخرى التي ظلت محرومة منها .

ولقد بدأت قولك بعد ان وصلت مع الدكتور مندور الى ان الوطن العربي كانت له قيادة فكرية مخلصة . بانك تقف مع كاتب المقال موقفا معاكسا لانه كتب في مقاله (اما القيادة الفكرية فقد كانت بعيدة عن تفهم روح الشعب وتاريخه المجيد وثقافته القومية لانها نهلت الكثير من مبادىء الثقافات الاجنبية) .. ولو انك احببت ان تكمل الجملة لقرأت (.. دون ان يكون هناك اساس حي للثقافة القومية ترتكز عليه تلك المعارف العصرية الغربية .) فترى انني اشترطت للنهل من الثقافات الاجنبية ، اساسا حيا للثقافة القومية يتمثل في اللغة العربية والتاريخ العربي ـ وهما قوام كل فكر قومي متحرر .

ان الثقافة الاجنبية دون اساس قومي ، هي التي ولدت فريقا من المثقفين ارادوا الانحراف بالوجدان القومي نحو اليسار ، كما ارادفريق اخر ان ينحرف بالمجتمع نحو اليمين ولو ادى ذلك الى تمزق فئة ثالثة .. (كانت تمثل ردة فعل الوجدان القومي للامة العربية ، منادية بضرورة محاربة القيادة السياسية المخرفة والقيادة الفكرية الضالة ، والايمان بآمال العرب في التحرر والوحدة) كما جاء في المقال صفحة ـ ٥١ ـ. واعتقد انك عنيت بهذه الفئة الثالثة ، القيادة الفكرية التي مهدت للانتفاضة . وهذا ما يمكن استخلاصه من سياق المقال .

اما قضية الموازنة بين بلد عربي مثقف بثقافات اجنبية وبلد لم يتثقف بها . فانني بكل تواضع احب ان اكمل لك الان مقالي : ان بلدا عربيا لم يتثقف بالمرة ،افضل الف مرة من كل الثقافات العصرية ، اذا كانت هذه الثقافات بالذات سوف تنسيه واجب احترام لغته العربية وتاريخه العربي . اما الثقافة العصرية الى جانب الثقافة القومية ، فغير !!

ولك من صديق تلامذتك خالص الاحترام والود .

حمص — علي بدور

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير
ص .ب. ٦٥٦ ـ تلفون ٢٧٦٨٣

امين الريحاني	رسائل ١٨٩٦ ـ ١٩٤٠
ميشال الحايك	المسيح امام المسلمين
جورج صيدح	حكاية مغترب (ديوان)
جون لوك	في الحكم المدني
انيس الخوري المقدسي	الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث
اتيليو جوديو	ثورة النساء في الاسلام
استاريا نينويا	اللا عنف
ادمون كسبار	والوصايا والهبات والارث
عارف العارف	النكبة (الجزء الرابع)
محمد القصري	مأساة العالم العربي
عبد العزيز الدوري	بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب
العودة من النبع الحالم	سلمى الخضراء الجيوسي